المحاضرة الرابعة (04): مفهوم النص في الدراسات اللسانية الحديثة:

اهتمت لسانيات دي سوسير بالجملة، فهي أقصى وحدة للتحليل اللساني، لذلك حاولت الاتجاهات اللسانية التي جاءت فيما بعد الاهتمام بالنص وتحديد مفهوم له ووضع آليات لتحليله ودراسته، ومن تلك الاتجاهات السيميولوجيا أو السيميائيات، والتداولية وعلم النص.

1/ مفهوم النص من منظور السيميولوجيا/ السيميائية:

تعرّف السيميولوجيا بأنها علم يبحث في أنظمة العلامات سواء أكانت لغوية أم غير لغوية. ويستفيد هذا العلم في دراسته للعلامة من منجزات اللسانيات والبلاغة والأسلوبية والشعرية وعلم النفس؛ لكون العلامة ذات طابع نفسي. والسيميولوجيا ثلاثة أنواع: سميولوجيا التواصل، سيميولوجيا الدلالة، وسيميولوجيا الثقافة. من الروّاد المُؤسِّسين لهذا العلم، هناك فرديناند دي سوسير وشارل ساندرز پيرس، ومن أبرز من ساهموا في السيميائيات: فلاديمير پروپ، لويس خورخي پرييتو، وألجيرداس جوليان غريماس، تشارلز موريس وتوماس سيبوك. وهناك مشروع سيميائي ينتمي إلى سيميولوجيا الدلالة أقامته جوليا كريستيفا وأثراه رولان بارث. وحتى أمبرتو إيكو أقام مشروعه التأويلي على مفهوم العلامة في السيميائيات.

في التحليل السميائي للنص الادبي "لا يهمنا ما يقول النص ومن قاله بل ما يهمّنا هو كيف قال النص ما قاله، أي أن السيميوطيقا لا يهمّها المضمون وبيوغرافيا المبدع بقدر ما يهمها شكل المضمون." ومن ثمّ، فالسيميوطيقا هي لعبة التفكيك والتركيب، تبحث عن سنن الاختلاف ودلالاته. فعبر التعارض والاختلاف والتناقض والتضاد بين الدوال اللغوية النصية يكتشف المعنى وتستخرج الدلالة. ومن ثم، فالهدف من دراسة النصوص سيميوطيقيا وتطبيقيا؛ هو البحث عن المعنى والدلالة واستخلاص البنية المولّدة للنصوص منطقيا ودلاليا. وهي تنتقل من الشكل إلى المضمون، من الدال إلى المدلول وفق ثلاثة مبادئ:

1- التحليل المحايث: فهي تدرس وظائف النص التي تسهم في توليد الدلالة.
2- التحليل البنيوي: فهي تهتم بالبنية ولا تفهم المعني إلا من خلال الاختلافات.
3- تحليل الخطاب: فهي لا تقف عند الجملة مثل اللسانيات، ولكن تحاول البحث عن كيفية توليد النصوص واختلافها سطحيا واتفاقها عمقيا.

2/ مفهوم النص من منظور التداولية:

التداولية هي دراسة المعنى في علاقته بظروف الكلام، وحيثيات استعماله، حيث اللغة نسق تواصلي. ومفهوم ظروف الكلام يقوم على خمسة أسس:

- المرسلون.
- سياق الملفوظ.
- هدف أو أهداف الملفوظ.

- الملفوظ باعتباره شكلا من الفعل أو النشاط.

- الملفوظ باعتباره نشاطا شفاهيا.

إنّ المتكلم يمتلك نيّة معينة للكلام، يعرف ما سيقوله، وما هو التأثير الذي سيحدثه بكلامه في المخاطب، ومن أي موقع يتكلّم، ويعرف وضع المخاطب والسلوك المتوقع عنه.

وتأتي أهمية التداولية من خلال كونها تهتم بمختلف الأسئلة الهامة، والإشكاليات الجوهرية في النص الأدبي المعاصر، لأنها تحاول الإحاطة بعديد من الأسئلة من قبيل:

- من يتكلم وإلى من يتكلم؟.

- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟.

- ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟.

- كيف نتكلم بشيء، ونريد قول شيء أخر؟.

ونقصد بالنظرة التداولية؛ تلك النظرة التي تقوم على البحث في العلاقات التفاعلية بين النص وبين منتجه من جهة، وبينه وبين متلقيه من جهة أخرى، مع مراعاة مختلف العناصر المقامية المؤثرة في هذه العلاقات.

إنّ التداولية ليست تخصصا منغلقا على ذاته، بل اقتحمت العديد من الموضوعات التي كانت تُصنّف ضمن موضوعات الفلسفة التقليدية مثل: الاقتضاء والاستلزام الحواري والأفعال اللغوية، إلى جانب ذلك تخوض التداولية اليوم في بعض الموضوعات التي ما زالت تشغل بال الفلاسفة والمناطقة، كمسألة الفرق بين الألسنة الطبيعية واللغات الاصطناعية المنطقية، وكذا الفرق بين الاستدلال المطبق في الألسنة الطبيعية، والبرهنة المنطقية المطبقة في مجال المنطق والرياضيات مثلا، إضافة إلى الاهتمام بموضوع الحجاج الذي يشكل أحد موضوعاتها الرئيسة.

3/ مفهوم النص من منظور علم النص:

علم النص أو لسانيات النص؛ حقل معرفي نشأ على أنقاض لسانيات الجملة والأسلوبية إذ تعدّ الجملة كافية لكل مسائل الوصف اللغوي، ولكن لا بد أن يتجه النظر إليها ضمن إطار أكبر هو النص.

يراعي علم النص في وصفه قواعد دلالية ومنطقية إلى جوار القواعد التركيبية. وهو يحاول أن يقدّم صياغات كلية دقيقة للأبنية النصية وقواعد ترابطها وأهمها؛ علاقات التماسك النحوي النصي، وأبنية التطابق والتقابل والتراكيب المحورية المجتزأة، وحالات الحذف والجمل المفسرة، والتحويل إلى الضمير، والتنويعات التركيبية وتوزيعاتها، وغيرها من الظواهر التركيبية التي تخرج عن إطار الجملة المفردة. من أعلام هذا الاتجاه "جوليا كريستيفا" التي حاولت تأسيس علم للنص الأدبي

من خلال كتابها علم النص. وقد تأثر بمقولاتها الناقد "رولان بارث" وحاول تأسيس نظرية النص. يقول بارث: " ولكي يكون هناك علم جديد لا يكفي أن يزداد العلم عمقا وانتشارا، وهو ما يحدث عندما نمرّ من لسانيات الجملة إلى سميائية الأثر، بل ينبغي أن يكون هناك لقاء بين فلسفات معرفية مختلفة، بله غير معروفة الواحدة منها حيال الأخرى، كما في حال الماركسية والفريدية والبنيوية، كما ينبغي أن ينتج هذا اللقاء موضوعا جديدا. ولا يتعلق الأمر بمقاربة جديدة لموضوع قديم. إنه في هذه الحالة موضوع جديد اسمه (النص)." فما يميّز هذا العلم هو أنه متداخل الاختصاصات أي أنه يعتمد على المقاربة البينية.

يحاول بارث في سياق تحديده لمفهوم النص التمييز بين النص والعمل؛ فيرى أن (الأثر الأدبي) هو قطعة من مادة (مادي)، تشغل فضاء فيزيائياً في المكتبة. وهو يحتوي النصوص، ونتناوله باليد. بينما (النصّ الأدبي) حقل منهجي، تتناوله اللغة. وينحصر (الأثر الأدبي) في (مدلول) واضح هو الفيلولوجيا، أو في مدلول خفي هو التأويل. أما (النصّ) فمجاله (الدال) الذي يحيل إلى فكرة اللعب ليجعل النصّ غير خاضع إطلاقاً لمنطق تفهمي، وإنما لمنطق كنايات. وهذا راجع إلى القدرة الرمزية التي يحتويها.